تفريغ محاضرة

كتاب الله وسنتي

رواء الاثنين | د. هند القحطاني

١٤٤٢ – ٤ – ١هـ

من نحن

نحن مجموعةٌ نهلنا من معين دروس د. هند بنت حسن القحطاني، التي هطلت بروائها على قلوب السامعين، ولما شهدنا ذلك الهطل غيثا مُغيثا مريئا، عملنا بكلّ جدٍ وحُبٍ على جميع المحتوى وتنظيمه ونشره ليسيلَ عذباً الى قلوبكم

نسعدُ بملاحظاتكم واستفساراتكم على البريد الالكتروني:

info@rawaa.org

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا رسول الله.

أما بعد،

وصلنا في درسنا الماضي مع النبي عليه الصلاة والسلام إلى المقام المحمود، واسأل الله أن يجعلني وإياكم ومن يسمع ووالدينا في زمرة النبي عليه الصلاة والسلام وفي أول من يدخل الجنة.

رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي، وبقيت هذه الأمة من بعده إلى قيام الساعة، فهذا الدين هو الدين الخاتم، والقرآن هو الكتاب المهيمن المصدق للذي بين يديه، وهو الكتاب الخاتم والمهيمن على كل الكتب السابقة إلى قيام الساعة، كتاب الله عز وجل هو الإرث الذي تركه النبي عليه الصلاة والسلام لنا مع سنته **رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس في حجة الوداع، فقال: «... يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ... »** [أخرجه الحاكم في المستدرك، وقال الألباني: صحيح]

إذًا الشيء الذي تركه النبي عليه الصلاة والسلام الإرث الذي أوصانا به هو كتاب الله وسنته صلى الله عليه وسلم. حينما يقول رسول الله: تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا، معنى ذلك واجبنا نحن أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن نذهب إلى هذين المصدرين وننهل منهما ونتخذهما منهج حياة، وتبعهما إرشادًا واستنارة وقواعد نقعد فيها لحياتنا.

إذًا هي ليست كتاب، سيرته وسنته صلى الله عليه وسلم ليست عبارة عن سيرة كما نقرأ سير العظماء أو سير العلماء، أو أي سيرة لأي عالم لرجل أعمال أو شخص عصامي أو حتى إنسان مصلح في بيئته ومجتمعه.

سيرة النبي صلى الله عليه وسلم نتدارسها للاقتداء، ولتكون هي منهج حياة لنا، فلما مات النبي عليه الصلاة والسلام أوصانا بهذين الاثنين وقال: **" تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا، كتاب الله وسنتي".**

فأما كتاب الله عز وجل فهو المعروف وهو القرآن الذي بين أيدينا، والأمة بأجمعها تقدر لهذا القرآن قدره وقد تكون اجتمعت إلى حد كبير بأنها تجتمع على هذا القرآن، ولا تختلف فيه ولا يتجرأ أحد أن يصف هذا القرآن بأي نوع من أنواع التحريف أو أن آياته فيها نوع من الغلو أو فيها أي نوع من الشطط، وهذا حتى الآن.

لكن الحديث عن سنة النبي عليه الصلاة والسلام والحديث حولها والتي قد يتطاول البعض على هذه السنة، ويتساءل كيف نعرف أن هذا الحديث هو صحيح.

القرآن محفوظ بحفظ الله، قال تعالى: **{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }.** [الحجر:9] ودرجت في أذهان العامة كل تلك المواقف والقصص التي حاول فيها دخلاء أن يضيفوا ولو حرف في كتاب الله فباءت محاولاتهم بالفشل.

فنأتي إلى سنة النبي عليه الصلاة والسلام والتي يحاول مجموعة من الناس التشكيك فيها أو في مصدريتها، أو حتى في وجوب الاتباع- فيقول: أنا لا أؤمن إلا بالقرآن، موجود في كتاب الله إذًا آخذه، غير موجود في كتاب الله إذًا أنا لن آخذه ولا يلزمني - وينشأ مجموعة من الناس تظن أن اتباع هذا الدين هو بأخذ القرآن فقط دون السنة، وهذا الكلام لا يجوز عقيدة لأن مصدر التشريع في دين الإسلام هو هذين المصدرين.

حينما يذكر الله في آيات عديدة في عشرات الأيات المنثورة في القرآن ويتحدث الله عن منته على هذه الأمة برسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي دائمًا الامتنان بالكتاب والحكمة، قال تعالى: **{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}**[الجمعة 2]. إذًا ما يأتي ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ويأتي معه الامتنان بكتاب الله والحكمة التي هي السنة النبوية. قال تعالى لزوجات النبي عليه الصلاة والسلام:**{ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ }**[الأحزاب 34]وأي تفسير تقرأه تعرف أن آيات الله هي القرآن والحكمة هي سنة النبي عليه الصلاة والسلام.

إذا لا يمكن لأحد أن يأخذ القرآن دون السنة وقد أخبر القرآن عن ذلك. قال تعالى:**{قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}** [النور 54]. فما تأتي طاعة الله فقط وإنما لا بد من طاعة الله وطاعة رسوله لأن رسوله هو الواسطة بيننا وبين الله عز وجل وهو الذي من خلاله نزل الوحي ووصل إلينا.

قال تعالى: **فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}** [النور 54]. **وقال تعالى:{وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ}**[النور 54]. وعكس الفوز الخسارة .

إذًا من لم يطع الله ولا رسوله فأولئك هم الخاسرون. لاحظوا هذا العطف **" أطيعوا الله ورسوله"** المفسرون يقفون عند الآيات التي جاءت فيها طاعة الله وبعدها مباشرة طاعة رسوله، " استجيبوا لله وللرسول" أو مثلًا جاءت **" أطيعوا الله وأطيعوا الرسول"** لماذا بعض الآيات أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وبعضها يثني ويعطف طاعة الله على رسوله مباشرة "وأطيعوا الله ورسوله"، فكل منها له تفسيره المختلف وينبني عليها أحكام، الشاهد منها أنه دائمًا يثنى على طاعة الله بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم،

ويقول الله عز وجل في كتابه:**{ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }**[الحشر7].وقال تعالى:**{ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاك لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون}**[الأنفال24].

هل فهمنا لهذا الموضوع خطأ ؟ وهل هو قابل للنقاش؟

اسمعوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وكيف عايش ذلك مع صحابته. أرسل معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن ليعلمهم هذا الدين و ليقضي بينهم ويحكم بينهم. **فجاءه النبي عليه الصلاة والسلام وكانت هذه الرحلة ما قبل الوداع. قال: «كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟»، قال: أقضي بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد في كتاب الله؟»، قال: فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «فإن لم تجد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا في كتاب الله؟» قال: أجتهد رأيي، ولا آلو فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره، وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول، رسول الله لما يرضي رسول الله»**[أخرجه أبو داود في سننه، وقال ابن عبدالبر: صحيح مشهور]

هذا معاذ بن جبل رضي الله عنه وهو عالم من علماء الصحابة. فهو يعرف أنه لو لم يجد في كتاب الله ما يقضي به سيقضي بهم بالسنة- بما تعلمه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ورآه- إذًا أجاب النبي عليه الصلاة والسلام إلى أنه يحكم بسنة رسوله إذا لم يستطع أن يحكم بكتاب الله .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكئ على أريكته، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه. وما وجدنا فيه حراما حرمناه، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله " [أخرجه الترمذي في سننه، وقال الألباني: صحيح] .**بمعنى لا يجوز لك أن تفرق بين السنة وبين القرآن، ولا يجوز أن تنظر للسنة بدنو،**

وقال صلى الله عليه وسلم: قال: **«ألا إني أوتيت الكتاب، ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ....»** [أخرجه أبو داود في سننه، وقال الألباني: صحيح]

هذان الحديثان فيهما نوع من التحذير ، وتحذير شديد اللهجة لمن يتكئ شبعانًا على أريكته، ويختار شيئًا من كتاب الله ليتبعه ، وما لا يلزمه من الحديث لا يتبعه، حديث آحاد غريب ، يرى أن حديث رسول الله منه الصحيح ومنه الضعيف فلا يلزمه ويترك كل الحديث، وهذا لا يجوز .

"ألا إنّي أوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معهُ" لذلك أغلب الشرائع جاءت مجملة في القرآن وفصلتها السنة، أمرنا بالصلاة في القرآن، لكن كم ركعة الفجر، وكم ركعة العصر. أمرنا بالزكاة لكن كم نصابها، أمرنا بالحج لكن أين هي مناسك الحج بتفاصيلها، أيضًا ما هي الأحكام لمن كان مريضًا ولم يستطع، أو به أذى أو حل إحرامه لأي سبب ،فيوجد أحاديث تدعم ذلك وتوضحه، فلا يجوز لك أن تأخذ شيئًا من القرآن وتترك السنة.

إذا عرفنا ذلك، عرفنا كيف انبرى علماء الأمة من أجل حفظ هذه السنة، ولأي شخص متكئ على أريكته شبعان ويأتي إلى السنة وينظر إليها بنوع من الدنو، وأنها لا تلزمك كمسلم، أنت لا تعرف كيف بُنيت هذه السنة حتى تأتي فتثرّب عليها.

القرآن الكريم مرّ علينا كيف كان تدوينه وجمعه، فقد أمر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجمعه بعد مقتل كثير من القرّاء فتم تدوين القرآن وجمع عن طريق زيد بن ثابت، فجمع القرآن من صدور الرجال، ومن صحاف الورق، ومن مختلف البيوت وما كان يكتب آية من كتاب الله إلا ويأتي عليها بشاهدين، فكل صفحة وكل سطر من سطور القرآن قام زيد بن ثابت الشاب وهو ابن الثمانية عشرة سنة لم يكتب شيئًا منها إلا بشاهدين ، ليؤكدوا على موضعها في القرآن، وهذا من تكرمة الله لهذه الأمة وحفظًا لكتابها .

لكن كيف حُفظت لنا السنة؟ وكيف نتأكد أن هذا الحديث هو حديث صحيح وقاله النبي صلى الله عليه وسلم، بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من 1400 سنة.

فلما يأتيني أحد ويقول قال رسول الله كيف سيكون عندي ضمان أن هذا قول رسول الله؟ ولا يكون أحد في القرن الرابع عشر ألّف حديثا وقال لا حرج في أن تفعلوا كذا، كيف أضمن أن ما يكون أحد من المبتدعة أدخل شيئًا سنة النبي عليه الصلاة والسلام ليس منها. الضمان هو ما حصل لهذه الأمة وعلمائها من عهد الصحابة إلى القرن الثالث، خلال القرون الثلاثة الأولى بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صارت حركة علمية أشبه بالبطولة لحفظ هذه السنة.

مراحل تدوين السنة:

تدوين السنة مرّت بثلاث مراحل :

-في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد نهى الصحابة عن أن يكتبوا الحديث مع القرآن حتى لا يختلط . لخوفه على القرآن أن يدخل معه ما يدوّن من السنة في صحاف واحدة. فقال صلى الله عليه وسلم: **"لَا تَكْتُبُوا عَنِّي، وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ..."**[أخرجه مسلم، صحيح] لكن هذا النهي لم يكن للكل، وإنما للعموم. فهناك مجموعة من الصحابة يسمح لهم النبي عليه الصلاة والسلام أن يكتبوا عنه الأحكام، في الديات، في الإرث، في أحكام أخرى،

وكان من هؤلاء عبدالله بن عمرو بن العاص. قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله.

فإذا جاء الآن من يقول كيف أضمن؟ فلا بد أن تعرف أن الصحابة رضوان الله عليهم ورسول الله حين كانوا قد ابتدؤوا الكتابة أساسًا. وكانوا يدونون في صحائفهم ما كانوا يسمعونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عن عبد الله بن عمرو، **قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه، فنهتني قريش وقالوا: أتكتب كل شيء تسمعه ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في الغضب، والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأومأ بأصبعه إلى فيه، فقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق»** [أخرجه أبو داود في سننه، وقال الألباني: صحيح] قال تعالى: **{ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى [3] إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى[4] }** [النجم3، 4].

وجاء أبو شاة -رجل من أهل اليمن- في فتح مكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: **«اكْتُبُوا لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اكْتُبُوا لِأَبِي شَاهٍ»**

وسئل اِلْأَوْزَاعِيِّ: مَا قَوْلُهُ اكْتُبُوا لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ **قَالَ: هَذِهِ الخُطْبَةَ الَّتِي سَمِعَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .** [أخرجه البخاري، صحيح]- كتاب فيه الأحكام، فيه شيء من العقائد- وكان كثير من الصحابة يحفظون ما يدونون عن النبي صلى الله عليه وسلم. بل كانوا يتناوبون فعمر بن الخطاب مع صحابي آخر من الأنصار كانوا يتناوبون في العمل، فأحدهم يذهب للعمل والآخر يذهب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يتعلّم منه فقد يأتيه أعرابي فيسأله عن مسألة فيجيبه بشيء لا يعرفه الصحابي . فكانوا يتناوبون على رسول الله -صلى الله عليه وسلم - لا لحفظ القرآن فقط بل لاتباع سنته والتعلّم من هديه.

مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك، وترك إرثًا كبيرًا للصحابة بمجموعة من المغازي، السير، الأحكام، الأحداث، من حالات كثيرة بينه وبين زوجاته، بينه وبين الصحابة، وبينه وبين أعدائه، لو تقرؤون الكتب المكتوبة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام وخلقه مع كل شيء، رسول الله مع الضعفاء، رسول الله مع أصحاب الاحتياجات الخاصة، رسول الله مع الأطفال، رسول الله مع كبار السن ورسول الله مع الأعداء وكل واحدة منهم لا تقل عن مائة أو مائتين صفحة في كيف كان هديه - صلى الله عليه وسلم - في السلم، في الحرب، في السفر، في الحضر، في النوم، في الجلوس، وفي التكلم، حتى في أنفاسه كانوا يعدون عليه أنفاسه،

فيقولون: كنا نعدّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة تسبيحة، كيف عدّوها؟ لأن رسول الله جالس بينهم، وفيهم من يعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم كم يسبح.

ولذلك الله اختص الصحابة بصحبة نبيه، لم تكن عقولهم مشغولة في دنياهم، كانوا يقدّرون النبي صلى الله عليه وسلم حق قدره، ويعلمون أن كل نفس من أنفاسه منهج للاقتداء.

فلما مات عليه الصلاة والسلام تاركًا ذلك الإرث وجد الصحابة رضي الله عنهم أن مجرد الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مسؤولية كبيرة فكانوا يتحرزون، ولم يكونوا يتكلمون بما فعلوه مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم.- وما كانت هذه أحاديث يحكونها وإنما إذا جاءت المسألة اجتمعوا وتذاكروا فيها ماذا كان يفعل رسول الله في المسألة.

وقد تمر المسألة بعمر بن الخطاب رضي الله عنه أو النازلة فيجمع لها أهل بدر؛ ليعرف كيف سيكون رأي رسول الله صل الله عليه وسلم في هذه النازلة لو حصلت. فكانوا إلى هذه الدرجة يتحرزون، ولا يبنون على علمهم الشخصي فقط عن النبي صلى الله عليه وسلم. وبقوا على هذا النوع من التحرز بأحاديث محدودة في وقتها.

فلما فتحت البلاد الإسلامية وصارت تتسع ما أكملت المائة الأولى من عمر الإسلام حتى وصل الإسلام إلى الصين شرقًا وإلى الأندلس غربًا، وإلى حدود آسيا وأوروبا شمالًا-الشام وبيزنطة- وإلى اليمن جنوبًا ، فامتلأت واتسعت الرقعة واتسع الاحتياج، فكان الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، فمثلًا من المدن في سمرقند وبخارى التي أسلمت بكاملها فمن يعلمهم، فكان الصحابة ينتشرون، منهم من رحل إلى الشام، ومنهم رحل إلى العراق وآخر توفي على أبواب روما، فهؤلاء كلهم كانوا يأخذون معهم إرث النبي عليه الصلاة والسلام.

بدأت الرواية في الناس، وحصلت الفتن بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، وظهر الخوارج والشيعة وغيرهم من الفرق، وظهرت المبتدعة ، وأصبح كل منهم يرى أن عنده حديث، فحتى لا يتشعب هذا الموضوع بدأ أولئك العلماء يتحركون حفظًا لهذه السنة. كما خاف عثمان بن عفان على القرآن أنهم يختلفون فيه- ابن عباس يقرأ على قراءة، وابن مسعود يقرأ على قراءة وآخر يقرأ على قراءة أخرى – فخاف أن يختلفوا فجمع الناس كلهم على مصحف واحد الذي بين أيدينا الآن.

فالعلماء خافوا أن يختلط حديث النبي عليه الصلاة والسلام بحديث التابعين أو بأقوال الصحابة، فلا يفرق الناس بعد مئات السنوات بين قول الرسول صلى الله عليه وسلم وبين قول أبي بكر رضي الله عنه. فكان أول من بدأ بفكرة التدوين هو الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ،

فكتب عمر بن عبد العزيز لأبي بكر بن حزم: انظر ما كان لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، وفي لفظ أبي نعيم: كتب عمر بن عبدالعزيز إلى الآفاق: انظروا ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوا.

هذه الكلمة لكي يبدؤوا الجمع، فصارت سلسلة من العلوم متدرجة ومتراكمة؛ ليعرفوا هذا الحرف من هذه الجملة جاءت بهذه الطريقة، فما كان منهم إلا أن انبرى مجموعة من العلماء وكان من أوائلهم الإمام محمد بن شهاب الزهري، **وقال هو عن نفسه: لم يدوّن هذا العلم أحد قبل تدويني.** فهو أول من بدأ يدوّن هذا العلم – حديث النبي صلى الله عليه وسلم - في صحاف. وبدؤوا ينخلون حديث النبي عليه الصلاة والسلام. قال عبدالله بن المبارك: **الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء.**

كل حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم مقسم إلى قسمين: متن وإسناد.

المتن هو الحديث" إنما الأعمال بالنيات"، الإسناد هو من قال هذا الحديث، عبد الله بن عمر بن الخطاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيوجد خمسة أو ستة أسماء تأتي قبل الحديث وهذه الأسماء لا يقولها أي شخص ، إنما هي خمسة أو ستة أسماء مختبرة أن هذا لقي هذا وعاصره وسمع منه، وأنهم عدول، وأنهم لا يوجد بهم شيء يثلم حفظهم أو يجرح في حديثهم أو إيمانهم، ويجب أن يكونوا معروفين، فعند قراءتنا للحديث نقرأ الحديث من غير سند لعدم معرفتنا، هذا المتن في أيام اشتداد الفتن وكل فريق مثلًا يقول للآخر نحن تبنينا هذا الفكر لأن رسول الله قال كذا، فيأتي الفريق الآخر فيقول سموا لنا رجالكم، فقبل أن يأخذوا بالحديث لا بد أن يعرفوا رجال السند فيقول فلان عن فلان عن فلان، إذا كان أحد من هؤلاء مبتدع أو كذّاب أو ضعيف أو غير معروف، قالوا لا نأخذ بهذا الحديث، فلم يكونوا يأخذوا بحديث إلا من عرفوا رجاله.

ولكي لا نظن بأن التدوين صار بأي كلمة كتبت بأي طريقة، ابتدأ التدوين والصحابة موجودين ولم يرحلوا، وكان تابعي الصحابة بمعنى من قابلوا الصحابة وقد يكونوا أبناءهم أصلًا ، أو مواليهم . فنحن نتكلم عن الجيل الثاني، لا نتكلم عن الجيل الرابع أو الخامس، وإنما الجيل الثاني مباشرة. فلما كانوا يسمعون الحديث أحدهم يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ".** [أخرجه البخاري، صحيح] **الذي روى الحديث قال": بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ، شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ البَيْتِ"** [أخرجه الترمذي في سننه، وقال الألباني: صحيح] فكان ينبري له ويوقفه ويقول لا، يابن أخي ما هكذا **قاله رسول الله. قاله:" وحج البيت وصوم رمضان"** لا تقدّم كلمة قبل كلمة، **ولو كنا في ذاك الوقت لم نر فرقًا بالتقديم والتأخير أهم شيء المفهوم. لذلك الله اصطفى لحمل دينه أولئك.**

وكان أول من بدأ بالتدوين -كما ذكرنا- هو الزهري رحمه الله ، ثم جاء من بعده الأوزاعي بالشام، وسفيان الثوري بالكوفة، وحمّاد بن سلمة في البصرة، والإمام مالك بن أنس في المدينة.

لماذا نقول هذه الأسماء؟ هذه الأسماء مشهورة وغالبًا لو قرأنا في كتاب علمي شرعي سنجد هذه الأسماء تتكرر، فعندما نتحدث عن تدوين السنة لا تظنون بأن الموضوع فوضوي، وإنما انتهى علم الحديث إلى هؤلاء الخمسة، فكانوا مثل العواصم في أماكن متفرقة أحدهم في الشام والآخر في الكوفة. فغالبًا أي حديث سيكون عن سفيان الثوري أو عن مالك بن أنس أو عن حماد بن سلمة أو غيرهم، إلى هؤلاء الخمسة كان منتهى الحديث. ومن يتخصص في علم الحديث لديهم قوائم تشجير، مثل الخط البياني هذا أخذ عن هذا.

فرحلة الحديث التي ترون هي رحلة حديث مدروسة، بمعنى أن كل من روى هذا الحديث ألّف كتاب، ففي مؤلفات تتحدث عن حياة كل شخص روى الحديث، وكيف طلب العلم، وكيف التقى بغيره من الرواة وروى عنه، فيأتي من بعدهم بهذه الكتب ممن لم يعاصر هذا الجيل فيعرف من خلال الكتب التي تتحدث عن حياتهم بأن فلان روى عن فلان والتقى به فأخذ منه وكانوا في نفس العصر وهكذا، إذًا الأسماء التي ننظر إليها ونشكك فيها هذه أسماء محفوظة، عندما درسنا مصطلح الحديث في الجامعة كنا ندرس فيه معاجم ألّفها ناس فرنسيين وألمان، كانوا يدرسون كتب المعاجم والمسانيد ويدرسون فيها الإسناد، وكانوا يقولون لو أن للإنجيل أو النصراني مثل هذا الإسناد لما وقع التحريف، وعندما تقرئين هذه الكتب لم تكن كتب طبيعية، كانت عبارة عن جداول لا يوجد فيها أحاديث، كل ما فيها أسماء فلان عن فلان عن فلان، وأول طرف للحديث، فحتى طريقة الكتب هي عبارة عن معاجم غريبة لكن يأخذونها حتى لا يمر حديث لرسول الله صلى الله عليه ولم يتعرض لهذه الفلترة.

بعد هؤلاء تأسس **علم كبير لمصطلح الحديث، علم الجرح والتعديل**، متى يكون الحديث صحيح، ضعيف، معلول،حسن، وما معنى هذا كله، ومتى يؤخذ ومتى لا يؤخذ؟.**لما حصل هذا ونتذكر علم الحديث، ونتهي من عصر الصحابة.**

- انتهينا من كتب تدوّن فيها كل الأحاديث المغازي، مع القضايا مع الأحكام، نبدأ بالمرحلة الثانية في القرن الثاني الهجري، والتي بدأ فيها تصنيف الكتب لكل علم من العلوم، فيضعونه في كتاب مستقل، فصار لدينا كتاب في الغزوات، وكتاب في التفسير، وكتاب في الفقه، وهكذا. عندما جاء القرن الثالث- القرن الذهبي لعلم الحديث- وهو الذي كان فيه الإمام أحمد، الإمام الشافعي، الإمام البخاري، الإمام مسلم، والإمام ابن كثير وغيرهم من هؤلاء العلماء في مثل هذا العصر والذين بدؤوا يصححون هذا كله، فجمعوا كل الحديث وبدؤوا بمرحلة ثالثة من الغربلة، فكانوا لا يكتبون الحديث من غير ذكر درجته هل هو صحيح أو ضعيف.

كانوا يكتبون الحديث ويكتبون بجانبه الخمسة، جاء العلماء في القرن الثالث وبدؤوا يغربلون هؤلاء الخمسة، ويتتبعونهم فهذا حافظ وهذا الحديث متروك، وهذا بعد أن حُرقت كتبه لم يؤخذ من حديثه، فمن سنة كذا إلى سنة كذا يؤخذ حديثه، بعد هذه السنة أحرقت كتبه فلا يؤخذ حديثه، فشخص واحد ثقة عندهم في مرحلة يأخذون حديثه، لكن في مرحلة أخرى لا يأخذون حديثه لأنه لم يقرأ من كتابه صار يقرأ من حفظه، ليس لأنه كذّاب، ولا لأنه قال شيئًا خاطئًا، لكن قد يخطئ فلا يأخذون منه، فإلى هذا الحد كانت عنايتهم بالحديث.

بعد عصر الصحابة والتابعين إذا أردنا أن نأخذ أشهر خمسة أسماء، فواحد من هؤلاء الخمسة إن لم يكن أولهم هو الإمام البخاري رحمة الله عليه، وهو أشهر من علم، ومن أكثر من خدم سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

من هو البخاري؟ وما هي قصته؟

البخاري رحمه الله له ذكر لم ينطفئ إلى الآن ونحن في القرن الرابع عشر، والبخاري رحمه الله من القرن الثالث. وهو حاضر معنا في كل درس نذكره تمر علينا أحاديث ونقول رواه البخاري، في كل خطبة يمر علينا ذكره فنذكر الحديث ونقول رواه البخاري، لا يوجد طلبة في مدارس ولا شهادة في جامعة إلا يأتي ذكر لحديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - فتكون تزكية هذا الحديث أن يكون رواه البخاري، فما هي قصة هذا الرجل؟ ولماذا الحديث دائمًا حوله مرتبط بسنة النبي عليه الصلاة والسلام.

يقول أحدهم: إن للتاريخ رجالًا حفظوا هذا الإسلام، لا يمكن زوال ذكرهم إلا بزوال الإسلام. فإلى قيام الساعة، طالما أننا نقرأ القرآن ونقرأ سنة النبي عليه الصلاة والسلام سيأتي ذكر البخاري. لأن الذي حفظ لنا سنة النبي عليه الصلاة والسلام هو البخاري رحمة الله عليه.

هذا الرجل كان نحيف الجسم، ليس بالطويل ولا بالقصير، من علماء القرن الثالث، تيتم وهو صغيرًا- وهذه صفة مميزة في أغلب العلماء مثل الإمام أحمد و غيره كان أغلبهم أيتامًا وكانت التي تتولى تربيتهم أم صالحة وهذا أثر الأم على الأولاد- فعاش مع والدته، ذهبت عيناه في صغره فعمي، فجلست أمه تدعو الله باضطرار، وتبكي في دعائها، إلى أن رأت في المنام إبراهيم عليه السلام فقال لها: يا هذه قد رد الله على ابنك بصره بكثرة دعائك وبكائك، فأصبحت وقد رد الله بصر البخاري له.

إذًا الأم صالحة ابتداءً، والأب- إسماعيل -كان من الرواة الثقات، وكان تاجرًا، وأخبر عند موته أنه لا يعلم في ماله درهمًا من حرام ولا درهمًا من شبهة، فعندما يموت الإنسان يذكر أعظم إنجاز له، فهو تاجر ومتكسب وورثه البخاري عن أبيه وهذا المال خالص من الحلال، لا فيه مال من شبهة ولا من حرام. **قال أحمد بن حفص: دخلت على إسماعيل والد أبي عبدالله عند موته، فقال:" لا أعلم في مالي درهمًا من حرام ولا درهمًا من شبهة".**

سيرة هذا الرجل هي من أعجب العجب، ويبدأ العجب منذ أن كان صبيًا، فيحكي عن نفسه وقد سُئل: كيف كان بدء أمرك؟ **فقال ألُهمت حفظ الحديث وأنا في الكتّاب**. - مثل من هم الآن في أفريقيا يدرسون هذه هي الكتاتيب- فكان يحفظ القرآن، **ويقول: ألُهمت حفظ الحديث وأنا في الكتّاب**. بمعنى أنه ألهم حب الحديث وهو ابن السبع سنوات أو ثمان أو تسع سنوات في هذا السن المبكر، **يقول الفربري: سمعت محمد بن أبي حاتم يقول: سمعت البخاري يقول: ألهمت حفظ الحديث وأنا في الكتّاب قلت: وكم أتى عليك إذ ذاك، قال: عشر سنين أو أقل، قال: ثم خرجت من الكتّاب فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره.** -فلم يعجبه فقط بقاؤه في الكتاب فبدأ يختلف للعلماء الموجودين عنده في بخارى، وقد ولد هو في بخارى- **فبدأت أختلف إليهم وأطلب العلم عندهم،** فقال يومًا فيما كان يقرأ للناس -يقصد العالم **– قال سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم، فقلت: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم- هذا لم يلتق بهذا- فانتهرني. فقلت: ارجع إلى الأصل إن كان عندك وانظر، فيقول: فدخل فنظر- فلم يكابر الشيخ ويقول له من تكون- فلما رجع قال: تعال يا غلام كيف هو- يقصد ماذا قلت – فقلت: هو ليس أبو الزبير- أبو الزبير راوٍ آخر – هو الزبير وهو ابن عدي ابن إبراهيم، فأخذ الشيخ القلم وصحح كتابه وقال لي: صدقت. فقال له:- ممن يسمع قصة البخاري حينما قال القصة وهو كبير- ابن كم حين رددت عليه؟ قال: كان لي إحدى عشرة سنة.**

فبدأ في هذا العمر المبكر، فيقول: فلما طعنت في سن ستة عشرة سنة، كنت قد حفظت كتب ابن المبارك، ووكيع كلها، وعرفت كلام هؤلاء -يقصد بهم أهل الرأي- ، ثم خرجت مع أمي وأخي إلى مكة فلما حججت رجع أخي بأمي- إلى بخارى وهي الآن في أوزبكستان- وتخلفت أنا في مكة لطلب الحديث، فلما طعنت في ثمانية عشرة سنة صنّفت كتاب قضايا الصحابة والتابعين، ثم صنّفت تاريخه بالمدينة عند قبر النبي عليه الصلاة والسلام وكنت أكتبه في الليالي المقمرة ، وقلّ اسم في التاريخ إلا ولي عنده قصة إلا أني كرهت أن أطوّل الكتاب.

الكتب التي كتبها أبو عبدالله البخاري قامت على إثرها دراسات دكتوراة إلى يومنا هذا، فمن يظن أنه في عمر الثمانية عشر ماذا جمع من العلم؟

الكتب التي كتبها بعضها تصل إلى ثلاثة عشر مجلد. ليس كتاب واحد فقط، **صحيح البخاري الذي كتبه عندما شرح شرح في أكثر من أربعة عشر مجلد، لشرح الكلام الذي قاله والعنونة التي وضعها هو.**

يقول الشيخ البخاري رحمه الله: ثم ارتحلت في طلب العلم وكان ذلك حوالي سنة عشرة ومائتين فرحلت إلى المدينة والشام ومصر ونيسابور والجزيرة والبصرة والكوفة وبغداد وواسط ومرو والري وبلخ وغيرها. **وقال الخطيب: رحل في طلب العلم إلى سائر محدثي الأمصار.**

شاب عمره ثمانية عشر سنة ما إن يسمع بأحد عنده طرف من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ويسافر في طلب الحديث ولو كان حديثًا واحدًا، لذلك ما وصلنا الحديث بمقدار السطر ونقرأه على عجل، أو في رسالة وغيرها، هناك من سافر من أجل أن يتأكد من صحة هذا الحديث ، ابن عباس - ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان غلامًا حينما مات رسول الله، فلما مات عليه الصلاة والسلام رحل ابن عباس بنفسه إلى الصحابة يتتبعهم يبحث عن الأحاديث وكل حديث عند أحد من الصحابة، فكان بعضهم قد سافر إلى بغداد أو الشام فكان ابن عباس وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم يذهب إليه ويجلس عند بيته ينام على التراب إلى أن يخرج الرجل- لأنه جاءه في وقت قائلة فلا يريد أن يضرب عليه الباب فينام متلفعًا بردائه إلى أن يخرج- فينظر إليه الصحابي فيقول: ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم هلّا آذنتني فأتيتك. قال: العلم يؤتى ولا يأتي. ابن عباس رضي الله عنه كان يرتحل لطلب حديث واحد.

البخاري سافر كل هذا السفر وهو ابن الثمانية عشر سنة، وبدأ أخذ الحديث من سن مبكر فهو قد أخذه من بخارى من بلده وكان يختلف إلى علماء الحديث. وكان أقرانه يختلفون معه إلى المشايخ لأخذ الحديث. **يحدّث بهذه القصة حاشد بن إسماعيل، يقول: كان يختلف معنا البخاري إلى مشايخ البصرة وهو غلام، فلا يكتب، حتى أتى على ذلك أيام** - ست عشرة يومًا-

فكنا نقول له: إنك تختلف معنا ولا تكتب، فماذا تصنع؟ فأكثروا عليه، فقال لهم: أكثرتم علي وألححتما، فاعرضا عليّ ما كتبتما، فعرضوا عليه في كتبهم ستة عشر ألف حديث، فبدأ هو من حفظه يسردها حتى جلسوا هم يصححون الأحاديث التي عندهم على حفظه. يقول حاشد بن إسماعيل: فعرفنا عندها أنه لا يتقدمه أحد. هذا في بداية طلبه. بداية حفظه وهو صغير عندما كان يختلف على العلماء.

ثم ذاع صيته في الناس، **يقول هو عن نفسه: أحفظ مائة ألف حديث صحيح، وأحفظ مائتي ألف حديث غير صحيح.** كان يجلس في مجلسه في بغداد لمّا بدأ في التحديث - **يقول ابن كثير: وقد بدأ في التحديث ولم تخرج في وجهه شعرة-** وعدد الناس التي تسمع له وتقرأ و تستملي منه- والذي كان من بينهم مشايخه الذين كان يدرس على يديهم وكان منهم أيضًا الإمام أحمد بن حنبل وهو إمام أهل السنة. كان يثني ركبته عند هذا الغلام الصغير - أكثر من عشرين ألف تلميذ يكتبون كلهم الحديث بين يديه، وسمع منه كتاب الصحيح مباشرة تسعون ألفًا. لا عجب أن يكون له الثقل في واقعنا.

ويقول هو عن نفسه كتبت عن ألف شيخ وأكثر، عن كل واحد منهم ١٠ الآف وأكثر، ما عندي حديث إلا أذكر إسناده .

ولا يحفظ الحديث هكذا بل يحفظه من إسناد النبي عليه الصلاة والسلام إلى الشخص الذي قال له فكل السلسلة هذه الموجودة يعرفها ، ويعرف ولادتهم ومساكنهم وقصة حياتهم ولذلك ألّف كتابًا كاملًا قبل أن يكتب الصحيح الذي سنذكره بعد قليل

قدم في بغداد عندما اشتهر أمره وصارت الناس تعرف أنه هو حافظ للحديث وأن عنده حديث لا يُعرف في مكان آخر فسمع منه أصحاب الحديث فاجتمعوا وعمدوا إليه، وعندما نتكلم عن تلك الأيام لم تكن سهلة ولم تكن هناك وسائل للاحتفاظ كالملفات ،أو الكتب فكان الحفظ هي الوسيلة الأولى لحفظ العلم فالأحاديث كانت متفرقة

لكن البخاري اجتهد و كان يسافر هذه الرحلة حول العالم ليجمعها كلها لشخص واحد فكان هو عبارة عن **" كمبيوتر متنقل "** لهذي الأحاديث

ليس فقط بالمتون وإنما يحفظ المتن والإسناد فيعرف أحاديث الشام ويعرف أحاديث بغداد ويعرف أحاديث المدينة وأهل اليمن وهكذا،

لما قدم بغداد وهو ليس من علمائها هو من سمرقند، فجاؤوا وقد سمعوا فيه أهل الحديث فاجتمعوا بينهم وقالوا: دعونا نختبره و نرى ما يقولون عنه، فذهب علماء الحديث الكبار وأحضروا ١٠ من ناس مغمورين وعلموهم ١٠ أحاديث فكل واحد منهم حفظوه حديث فالحديث صحيح لكن إسناده ليس صحيحًا فيأخذون هذا المتن ويعكسونه، في اليوم التالي ،اجتمع الناس وكل أهل بغداد اجتمعوا عليه وبدأ يحدث ثم أشار علماء الحديث لهؤلاء العشرة و١٠ في ١٠ = **١٠٠ حديث ١٠٠ منثور مع هؤلاء العشرة** فلما أنتهى قام أحد هؤلاء العشرة و قال عندي أحاديث فما رأيك بها وقال الحديث بإسنادٍ صحيح ولكن مع المتن الخطأ، فقال البخاري : لا أعرفه وقال الحديث الثاني قال : لا أعرفه الثالث الرابع الخامس السادس فقال لاأعرفهم فجلس فكان الناس يرون هذا المشهد وأن كيف هذا الإمام الذي لايعلم عن ١٠ أحاديث! ، فقام الثاني من زواية أخرى و قال يا إمام اذكر لي حكم هذه الأحاديث فذكر له الحديث فقال لا أعرفه وقام الثالث الرابع الخامس السابع وإلى العاشر فقالوا الأحاديث التي عندهم وهو يقول لا أعرفها وما مرت علي فهذا الإسناد وهذا المتن لا أعرفه فلمّا علم البخاري أنهم قد انتهوا رجع إلى الأول فرد كل حديث إلى إسناده.

قال: ابن حجر ما العجب في رده الخطأ إلى الصواب فأنه كان حافظاً بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيبه ما ألقوه عليه.

فالبخاري رجع إلى أول واحد و قال أنت قلت الحديث الفلاني كذا فقال جميع الأحاديث العشرة الخاطئة وهي ليست بذلك وسرد له السند مع متنه الصحيح ثم ذهب للثاني وسرد له الأحاديث العشرة الخاطئة التي قالها كلها ثم ردها على إسنادها الصحيح فالناس ما عجبت أنه ردها للحديث الصحيح بل عجبت أنه حفظ الخاطئة ورد كل واحد منهم الحديث بنفس الترتيب ! **ويأتي أحدهم وهو متكئ على أريكته و يقول من هو البخاري ؟!**

ذهب البخاري مرةً إلى سمرقند واجتمع عليه أربعة ممن يطلبون الحديث فاجتمعوا سبعة أيام يختبرونه وقد أحبوا مغالطته فيجعلون أحاديث الشام في أحاديث اليمن ولم يتعلقوا منه بسقطة واحدة ١٠٠ شخص يقلبون عليه الأحاديث ويدخلون له في أحاديث الشام باليمن وأحاديث اليمن في العراق وهو لم يتعلق منه بسقطة واحدة .

قال الإمام ابن كثير وقد ذكروا أنه كان ينظر في الكتب مرة واحدة فيحفظها من النظرة الواحدة .

كان أهل العلم في البصرة يعدون خلفة في طلب الحديث - أي يركضون وراءه - وهو شاب حتى يغلبوه على نفسه و يجلسوه في بعض الطريق لكي يحدثهم من الذي عنده **قلنا وهو يمشي كأنه "كمبيوتر متحرك" بكل أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ،** فيجتمع عليه الآلاف في الطريق وأكثرهم ممن يُكتب عنهم ، شيوخ و يجلسون عند البخاري، يقول : وكان عنده شاب لم يخرج شعر وجهه بعد، فتخيل هذا الانكباب عليه وهو لم تخرج في وجهه شعرة واحدة ! . **لم يكن الحفظ موهبته الوحيدة وإنما كانت له همّة بالغة في حفظ حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم-**

يقول محمد ابن يوسف : كُنت مع البخاري في منزله ذات ليلة ،فأحصيتُ عليه أنه قام وأسرج يتذكر أشياء يعلقها على حديث رسول الله في ليلة واحدة ١٨مرة قام من أجل الإسلام من أجل حديث النبي عليه الصلاة والسلام أي نومة هنئ بها وهو ١٨مره يقوم ! لو قمنا ٣مرات ، اعتفس نومنا كله. وكان ثمرة حرصه أن بلغ ما عنده من حديث أكثر من ٦٠٠ألف حديث أي أكثر من نصف مليون حديث يحفظها البخاري ما بين مقبول ،ومردود يختزلها البخاري في ذاكرته بأسانيدها وفوائدها وعللها وهذا يعني أنه لا يحفظ الحديث ولا يفهمه ولذلك ألّف كتابه المشهور. "صحيح الجامع" من أجمل الأسماء و اسمه لوحده شرف الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وسننه وأيامه جمع في هذا الكتاب كل ما صحّ عن النبي عليه الصلاة والسلام في كل شيء، تفسير القرآن بالفقه والحديث وابتدأ من كتاب بدء الوحي إلى كتاب التوحيد، وما بينها من المواريث والصلاة والحروب والمعاهدات، والسلم كل الأحاديث التي وردت عند النبي عليه الصلاة والسلام ذكرها في كتابه هذا بأصح الروايات التي جاءت بها لكن مالذي جعله يألف هذا الكتاب ؟

في القرن الثالث في المرحلة الثالثة التي قبلها أُلفت كتب ولكن كان يكتب فيها السند ويكتب فيها المتن ، فجاء البخاري في وقت كانت الكتب مجموعة و لكن لم تكن ممحصة، وأن كلها

قالها رسول الله- صلى الله عليه وسلم - لكن من فيها صحيح وغير الصحيح، فكان في يوم يطلب العلم عن شيخه إسحاق ابن راهويه وكان يحدث طلابه فقال : **لو جمعت كتاب مختصر لصحيح سنة النبي عليه الصلاة والسلام، أي يجمع فيه الأحاديث الصحيحة فيترك الأحاديث الضعيفة ، يقول البخاري : فوقع ذلك في قلبي فأخذت فيه جمع الجامع الصحيح .**

فانظروا كيف للكلمة التي خرجت من شيخة وكيف كان وقعها في قلب هذا التلميذ وكل الأجر الذي قام به للبخاري يشترك معه إسحاق ابن راهويه فهو لم يرحل في طلب العلم كما فعل البخاري لكنها وقعت في نفس البخاري وأشركه بالأجر إلى قيام الساعة، زاد ذلك عنده أن البخاري **رأى في المنام النبي عليه الصلاة والسلام وقال : وكأنني واقف بين يديه وبيدي مروحة أذبُّ بها عن وجهه. - صلى الله عليه وسلم - فسألت بعض المعبرين فقال لي : أنت تذبُّ عنه الكذب** فهو الذي حملني على إخراج الجامع الصحيح ولقد رأه غيره كثير ، قد رأوه في المنام وهو يمشي خلف النبي عليه الصلاة والسلام كلما رفع النبي عليه الصلاة والسلام خطوته وضع البخاري خطواته خلفه فما هو واحد ولا إثنان، كانوا دائمًا يرون هذي الرؤية في البخاري .

ولنلاحظ ونعرف ما الذي جعل لهذا الكتاب هذه البركة وهذه الزكاة ، **يقول البخاري : ما وضعتُ في كتاب الصحيح حديثاً إلا اغتسلتُ قبل ذلك وصليت ركعتين ويقول صنفت الجامع من ٦٠٠ألف حديث في ١٦ سنة** ما ألفه وهو جالس ولا ألفه في سنة لكي يخرج هذا المشروع عمره ١٦ سنة أخذ من حياته ١٦ سنة كتبها بعد أن كتب تلك الكتب السابقة في رواة الأحاديث في الصحابة و التابعين فبعد أن رأوه جعل يكتب في هذا الكتاب كأنه واسطة العنق هي اللؤلؤة الكبيرة في إرث البخاري و الناس الآن وقد يكونون ذوي مناصب للأسف وغيرهم يقولون ٦٠٠ألف حديث تعال وزعها على ١٦ سنة ما يمكن ! معناها أن كل حديث أخذ منه ربع ساعة متى سافر ومتى جاء ؟ لكن لو قرأ في سيرة البخاري عرف أنه ما ابتدى في التأليف ولا رحل في طلب العلم في ١٦ سنة ، بل كان ينقح حصيلته التي جمعها منذ كان عمره ١٠ سنوات ، **نحن نتكلم عن عالم بدأ في طلب الحديث منذُ سن مبكرة هو صحيح الجامع حصيلة ينتقي منها من٦٠٠ألف حديث و انتخب منها أصح الصحيح ،**

قال ابن حجر : **وفيه سبعة آلاف ومائتين وخمسة وسبعين حديثًا ولو حذفنا المكررات منها فنحن نتكلم عن أربعة الآف حديث سبعة آلاف ومائتين وخمسة وسبعين حديثًا وبعدها عدها ٩الآف،** اختلاف العد في هل اعتبار هذا حديث أو هذا رواية فتخيلوا ١٧الآلف و كل سطر منها مكتوب قد اغتسل البخاري قبلها وصلى ركعتين يستخير الله قبل أن يكتب هذا الحديث

.

من يستطيع ذلك ؟

ابتدأ تصنيفه تبركًا في المسجد الحرام فأول ما كتب بسم الله وبدأ في تصنفيه وترتيب الأبواب في المسجد الحرام، وحول تراجمه في الروضة الشريفة وأما كتابة العناوين لهذه الترجمة فجعلها في مسجد النبي عليه الصلاة والسلام وكان يصلي لكل ترجمة والترجمة تعني - " عنوان الباب"

قال تلميذه الفربري: **أملى علي يومًا حديثًا كثيرًا، فخاف ملالي فقال طب نفسًا فإن أهل الملاهي في ملاهيهم وأهل الصناعات في صناعتهم والتجّار في تجارتهم، وأنت مع النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه** .

يقول البخاري: **صنفتُ كتابي الصحيح في ست عشرة سنة وخرجته من ٦٠٠ألف حديث وجعلته حجة فيما بيني وبين الله**، فهذا الكتاب عنية حتى يأتي به عند الله ، فهو لم يكتبه لزيادة أو ترقية أو منصب، بل ليكون حجة بينه وبين الله، فعندما أموت وأبعث وألتقي مع الله عز وجل ، هذا الكتاب معي وأنني أفنيت عمري بهذا الكتاب .

ما هي الميزة المختلفة في البخاري ؟

أنه وزع أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام على مجموعة من العناوين والفصول وكتب، هذه الكتب هي كالفصول كل واحد منها حول موضوع معين وحكم معين ، ولذلك هو لا يذكر أحكام لكنه يكتب في العنوان " باب ما جاء في تحريم كذا" تقرأ الأحاديث وقد لا يكون في الأحاديث تحريم ،

لكن أقرأ في الشرح ابن حجر ستجد لماذا البخاري قال تحريم رغم أن الأحاديث لم يكن فيها تحريم لأن مجموع طرق هذه الأحاديث مع الأحاديث الأخرى مع فهم الصحابة ومع شيء آخر يكون الحكم في أن الشيء الفلاني بناءً على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تكملة الحديث أن هذا الحكم حرام .

قال الإمام النووي: **اتفق العلماء رحمهم الله على أن أصح الكتب بعد القرآن العزيز البخاري، وتلقته الأمة بالقبول وكتاب البخاري أصحها أي البخاري ومسلم .**

قال علي ابن المديني : **وهو أحد من مشايخ البخاري كان يثني ركبته عند علي ابن المديني، وهو أحد العلماء الحديث الذين انتهى إليهم الحديث، ذُكر عنده قول البخاري على علي ابن المديني ما استصغرت نفسي عند أحد إلا عند علي ابن المديني** فلما قيل لعلي ابن المديني هذا الكلام قال : **دعوكم من هذا فإن محمد ابن إسماعيل ما رأى مثل نفسه، هذا وهو شيخه !**

يقول أيضًا حديث عمر ابن الفلاح حديث لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث ، قال إسحاق ابن راهويه الذي هو إمامه وشيخه، **اكتبوا عن هذا الشاب فلو كان في زمن حسن البصري لحتاج إليه الناس ،** وهذا لمعرفته بالحديث، يقول : نعيم بن حماد كان محمد بن إسماعيل فقيه هذه الأمة ومسلم الذي هو صحيح مسلم كان يقبل بين يديه على جبين البخاري **يقول له لا يبغضك إلا حاسد وأشهد أنه ليس في الدنيا مثلك** و الإمام مسلم هو من تلاميذ البخاري.

قال الإمام أحمد بن حنبل **ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل** أي- ما ولدت خراسان مثل محمد بن إسماعيل .

قال ابن خزيمة أحد رواة الأحاديث **ما رأيت تحت أديم السماء أعلم برسول الله - صلى الله عليه وسلم- وأحفظ له من محمد ابن إسماعيل .**

وقال يحيى بن جعفر **لو استطعت أن أزيد في عمر محمد بن إسماعيل من عمري لفعلت، فإن موتي موت رجل واحد، وموته هو ذهاب للعلم .**

كيف كانت حياة البخاري ؟

كان آية في العبادة، كان حافظًا لكتاب الله وخاتمًا له وكان يختم في كل ليلة من رمضان **فابتداء من رمضان** ، كان قليل الأكل كثير الإحسان ، مفرط الكرم كان لا يخرج إلا وفي جيبه دنانير يتصدق بها ويتصدق بالمئين أي - بالمئة والمئتين، كثير العبادة وكان فيه خشوع عجيب .

قال محمد بن أبي حاتم **دُعي البخاري إلى بستان في بعض أصحابه فلمّا صلى بالقوم صلاة الظهر قام يُصلي صلاة التطوع فلمّا تطوع رفع ذيل قميصه و كشف عن جزء من قدمه وقال لبعض من معه هل ترى تحت قميصي شيئًا ؟**

فإذا زنبور قد أبراه أي قرصه في ١٦ أو ١٧ موضعًا، وقد تورم من ذلك جسده كله ، فقال له بعض القوم كيف لم تخرج من الصلاة من أول ما أبرك ؟ قال كنتُ في سورة و أحببت أن أتمها.

البخاري لم يكن شديد التعبد فقط وإنما كان راميًا ومجاهدًا شجاعًا و مرابطًا على الثغور ، وكان يحب الرمي ولا يخطئ في رمي السهام ويتعلم ذلك .

يقول سليم بن مجاهد : **ما رأيت بعيني منذ ستين سنة، أفقه ولا أورع ولا أزهد في الدنيا مثل محمد بن إسماعيل،** وكان فيه من الورع أنه يقول **إني لأرجو أن ألقى الله وأن لا يحاسبني أني اغتبتُ أحدًا** .

قال الإمام الذهبي رحمه الله معلقًا على كلام البخاري **قلت صدق رحمه الله ومن نظر في كلامه في الجرح والتعديل علم ورعه في الكلام على الناس وانصافه فيمن يضعفه فإنه أكثر ما يقول : فيه نظر .**

لاحظوا أنه كان يقول لبعض من عنده إذا قلت لفلان في حديثه نظر فهو متوهم واهي ، **وما اغتبتُ أحدًا منذ علمت أن الغيبة حرام** فانظروا متى وصلت له هذه المعلومة في سن مبكرة وهو لم يغتب أحدًا ولاحظوا دقّتهُ في محاسبته لنفسه،

فقط لنعرف من هو البخاري .

جاء يومًا إلى رجلٍ اسمه أبو معشر الضرير فقال له **اجعلني في حلّ يا أبا معشر فقال من أي شيء؟ قال رويت يومًا حديثًا فنظرتك إليك فإذا أعجبك الحديث، فرأيتك أمامي وأنت تحرك رأسك ويدك فتبسمتُ من ذلك فاجعلني في حِلّ، خاف البخاري أن هذا الضرير لم يراه عندما تبسم فقال الضرير أنت في حِلّ يا أبا عبدالله ، وهذا وهو لم يغتب ولم يهمز .**

يقول وراقة : **كان يركب إلى الرمي كثيرًا فما أعلم أني طول ما صحبته أخطأ سهمه هدف .**

وهذا فوق أنه حافظ ومتقن في حفظه فرميته لا يخطئ فيها هدف قط .

يقول ركبنا يوما إلى الرمي فجعلنا نرمي فأصاب سهمُ أبي عبدالله وتد قنطرة، فرمية سهمه اخترق وأصاب قنطرة وأصاب الوتد فاخترقها، فنزع سهمه و قال لي يا أبا جعفر لي إليك حاجة، وهو يتنفس الصعداء ، قال : تذهب إلى صاحب القنطرة فتقول له إنا أخللنا بالوتد - أي القنطرة فنحب أن تأذن لنا في إقامة بدله أو تأخذ ثمنه وتجعلنا في حِلّ ، وكان صاحب القنطرة حميد بن الأخضر فقال لأبي جعفر أبلغ أبا عبدالله السلام وقل له أنت في حلّ من ما كان منك فإن جميع ملكي فداءٌ لك، فأنت البخاري وصاحب حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما جاءت الرسالة إليه تهلل وجه البخاري وتصدق في ذلك اليوم ب٣٠٠درهم وحدّث بـ ٥٠٠حديث يعني من شدّة انبساطه.

رؤي في البخاري رضى الله عنه علامات كثيرة فالنجم بن الخضير يقول : **رأيت النبي عليه الصلاة والسلام يخرج من قبره والبخاري يمشي خلفه فكأن النبي عليه الصلاة والسلام إذا خطا خطوة يخطو محمد البخاري، ويضع قدمه على خطوة النبي عليه الصلاة والسلام .**

قال الفيري(تلميذه) : **رأيت النبي عليه الصلاة والسلام في النوم فقال لي أين تريد؟ فقلت أريد محمد بن إسماعيل فقال : أقرئه مني السلام .**

وقال أبو زيد المروزي: **كنت نائمًا بين الركن والمقام فرأيت النبي عليه الصلاة والسلام في المنام فقال لي يا أبى زيد إلى متى تدرس كتب الشافعي ولا تدرس كتابي فقلت يا رسول الله وما كتابك؟ قال جامع محمد بن إسماعيل،**

وهذه الأسماء التي ذكرت أسماء مشايخ يحضر لهم في مجالسهم كتبوا فلان عن فلان ولا يمكن أن يكذب وهؤلاء العلماء ولا يمكن أن يترك الكذب على الناس ويكذب على النبي عليه الصلاة والسلام كان لا يذل العلم ولا يذل حديث النبي عليه الصلاة والسلام ولو أصابته في ذلك ما أصابه .

حدث أن البخاري ذهب إلى نيسابور وكان أميرها الأمير خالد بن أحمد الذهلي، فلما سمع بمقدم البخاري إلى بيته، طلب بقدومه إلى قصره ليُسمعه ما عنده فسأله أن يحضر منزله ويقرأ الجامع والتاريخ عليه فامتنع عن الحضور عنده ، و قال لا إن أراد أن يسمع يأتي إلى المسجد ويسمع مع الناس، فرد الأمير إذًا فليقعد ويجلس له في مجلس خاصة لي ولأولادي، فقال لا إن العلم لا يمنع من أحد والعلم يؤتى ولا يأتي هو، أي فالعلم لا يأتيك، كان يقول أنا لا أذل العلم ولا أذله إلى أبواب الناس، فمن كانت له حاجة فليأتنا .

توفي البخاري في ليلة عيد الفطر وعمره ٦٢ بعد أن مرض مرضًا وقد قال: اللهم إني قد ضاقت علي الأرض بما رحبت فاقبضني إليك فما تمّ الشهر حتى مات .

قال الطواويسي وهو أحد علماء الحديث : **يقول رأيت النبي عليه الصلاة والسلام في النوم ومعه جماعة من أصحابه وهو واقف في موضع فسلمت عليه فرد علي السلام فقلت يا رسول الله ما وقوفك؟ قال أنتظر محمد بن إسماعيل يقول فاستيقظت فلما كان بعد أيام بلغني موته في بلدة أخرى، فنظرت فإذا هو قد مات في الساعة التي رأى فيها النبي عليه الصلاة والسلام** . توفي ليلاً الإمام البخاري عشية عيد الفطر وصلي عليه بعد صلاة الظهر في عيد الفطر .

هذا غيض من فيض من سيرة هذا الرجل وما تركناه أكثر بكثير مما قلناه ولولا الإطالة لجئنا بأخبار شتى سواءً عن عبادته أو عن خشوعه وعلمه وزهده أو عن حفظه وإتقانه أو في رحلته والمواقف التي حصلت له في طلب العلم،

بقي أن نعلم أن هذا الرجل لم يعرف أجداده الإسلام إلا حديثًا من ولادته فعندما نقول محمد بن إسماعيل بن المغيرة فالمغيرة هذا كان فارسيًا ثم أسلم إذًا فالجد الثالث للبخاري كان فارسيًا ولذلك عائلته حديثة في الإسلام وعندما نقول من بخارى من أوزباكستان وكان أبوه فارسيًا إذا فنحن نتكلم على أناس كانوا أعاجم ولم يكونوا على هذا الدين، فالأفضلية ليست بموطنك وليست ببلدك ولا بلسانك العربي وإنما الشرف في نيتك أنت وفي صدق بلاءك لخدمة هذا الدين وفي الحياة العريضة التي تتركها وليست في أي حياة وإنما نحن جميعنا سنحيا ثم سنموت لا أحد منا سيخلد على هذه الأرض ، فالأحداث تختلف و الأسباب كذلك ، أحدهم بحادث والآخر بمرض أيًا كان المهم هذا الان المهم، هي رحلة كلنا سنرحلها لكن من سيخلف بعده إرث يمتد من بعده ؟

مات البخاري في سنة كم ؟مات في سنة ٢٥٦ونحنُ الآن في ١٤٠٠ و نتذاكر سيرته وستبقى سيرته محفوظة إلى قيام الساعة بحفظ سنة النبي عليه الصلاة والسلام ستبقى ذكرى حاضرة عند كل مسلم يتعلم أي حديث في أركان الإسلام ولا في بني الإسلام على خمس ولا أركان الإيمان السبعة ولا حديث النيات إلا وسيأتي معه ذكر البخاري **فالفكرة أنك تحيا وتموت لكن كيف تجعل لك إرث وامتداد يكون من بعدك وابل من الأجور تهطل عليك إلى قيام الساعة** إذًا ليس الشرف في أن تكون ابن مَن وجنسيتك ولسانك، لكن بعلمك الذي تركته و ورثته.

كان لصلاح ابويه أثر فيه، فأمه كما ذكرنا كانت صالحة وذات عبادة وصارت لها هذه الكرامة برد بصر ابنها عليه وأيضًا أبوه كان تاجراً، وكان لا يأخذ مالًا من شبهة ومن ورعه الذي ورثه لابنه البخاري أن البخاري نفسه أرسل ابنه له بضاعة فجاء التجّار إلى البخاري ليشتروها منه فطلبها بعض التجار ب ٥الآف فقال انصرفوا الليلة أي لن أعطيكم شيئًا اليوم ، فلما جاء من الغد جاءه تجّار آخرون وطلبوا نفس هذه البضاعة ب١٠ الآف فقال إني نويت أن أبيعها للذين أتوا البارحة ولا أحب أن أغير نيتي إذًا هذه النية وهذا الشعور بعدم أخذ المال ولو بشبهة من حرام هو الذي رفع فيه البخاري وهو الذي ورثه عن صلاح أبويه وهذا سبب الصلاح الذي نقرأه في كل جمعة بحفظ الله لليتيمين

قال الله عزوجل عنهم **وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنزٌ لهما وكان أبوهما صالحًا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك** فلو بُني جسد البخاري من حرام هل كان سيكون إمامًا في الحديث ؟

هل سيكون له هذا الشرف في خدمة سنة النبي عليه الصلاة والسلام ورسول الله صلى الله عليه وسلم: **"إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به"**[أخرجه الترمذي في سننه، وقال الألباني: صحيح]

فلو فيه شبهة من حرام في راتبك أو في مالك أو كسبك أو سهمك الذي اكتتبت فيه أو مشروعك الذي قمت به أي شيء لو كان فيه شبهه من حرام أو كان حرامًا وأنت تعلم عنه لكن الإغراء المادي كثير أي جسدٍ نبت من حرام فالنار أولى به صلاح أبو البخاري بأنه نقى هذا المال فجعله حلال فنبت جسد البخاري من مال حلال وأكمل البخاري مشواره فلم يأخذ أيضًا من مال حرام وهذا من الأسباب التي جعلت للبخاري زكائه وبركته ولذلك كثير من الآباء والأمهات يفرحون بصلاح أبنائهم لكنهم لا يقومون بواجبهم من تحري الحلال في إطعام هؤلاء الأبناء بهذا الرزق.

تأملوا في ملايين البشر الذين يترحمون على البخاري إلى يومنا هذا ويستغفرون له من عام ٢٥٦ إلى ١٤٤٢ والعالم كله يستغفرون للبخاري ويترحمون عليه، في كل درس وفي كل مطبعة يطبع فيها كتاب ، في كل ضغطة زر تتناول فيه أي موضوع و في أي درس و في أي حديث إلا ويأتي لفظة البخاري ويدرج فيها اسمه وهذه منقبة لا تتأتى لأي أحد وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

هذا فقط إسهام لبخاري في هذه السنة وقد توالى على هذه الأمة مثله، وهذه سيرة واحدة من العديد من السير، فكيف لو أخذنا في سيرة الإمام أحمد والشافعي وأخذنا في سيرة سفيان الثوري أو حتى إسحاق بن راهويه وغيرهم كل واحد منهم له حياة وله بذل في خدمة هذه السنة التي وصلت إلينا الآن،

فقبل أن تشكك في أي حديث وتقول لا أنا لا أخذ بهذا الحديث **ضع عندك تطبيق اسمه الدرر السنية وقم بتنزيل هذا التطبيق في جوالك وأي حديث يمر عليك في رسالة أو سمعته وأيًا كان ضع هذا الحديث أو خذ كلمة أو طرف من الحديث فمثلاً : الإحسان الإيمان وستجده مباشرةً يسرد لك كل الأحاديث بلغة بسيطة مقروءة أو مكتوب صحيح وغير صحيح ضعيف إلى غيره .**

أسال الله أن يجعلنا وإياكم من صحبة النبي عليه الصلاة والسلام وأن يشرفنا بخدمة بكتابه وسنة نبيه وأن يجعلنا من أوليائه الصالحين الذين يحبهم ويحبونه هذا

والحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تنويه: مادة المحاضرة جُمعت من مصادر عدّة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخل بروح المحاضرة ومعانيها